﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾

[الزمر: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أمرُ اللهِ بإخلاصِ العبادةِ له لاستحقاقِهِ لذلك سبحانه

لمّا أمَر اللّهُ سُبحانَه رسولَهُ ﷺ بإخلاصِ العبادةِ للّه؛ تهييجًا وإلهابًا وتثبيتًا على التَّمسُّكِ بما هو عليه من الحقِّ واليقين؛ نادى باستحقاقِ اللّهِ لذلك، أي: بأنْ يُفردَ بالعبادةِ، ولا يُقصدَ غيرُهُ، وأنَّه لم يَطلُبْ غيرَ حَقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصَوَّرُ أنْ يكونَ لِغيرِه سُبحانَهُ، وبيَّن وعيد مَن خالف الإخلاصَ، وحالفَ الشِّرك[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: (أخذ) أصل يدل على حَوْزِ الشَّيءِ وتَحْصيلِه، وهو خِلافُ العَطاءِ، واتَّخَذَ بوزنِ افْتَعَلَ، أصْلُهُ اأْتَخَذَ، فالاتِّخاذُ: افتعالٌ مِن الأَخْذِ، إلّا أنَّه أُبدلَتِ الهمزةُ تاءً، ثُمَّ أُدغِمَتْ مَعَ تاءِ الافتعالِ، والاتِّخاذ: إذا كانَ بمعنَى الكسْبِ؛ تعدَّى لواحدٍ، وإنْ كان بمعنى التَّصيير والجعل؛ تعدَّى لاثنين[2]، وهو في الآية متعدٍّ لمفعولين، والمعنى: والذين جعلوا مع اللّه شركاء.

2) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: (ولي) أصل يدل على القُربِ والدُّنوِّ واللُّزوم مَعَ شيءٍ مِنَ الاشتمالِ وعدمِ الانفكاكِ، وكذا الوليُّ لا ينفكُّ عنْ مولاهُ، والوَلِيُّ: الصَّديقُ والمحبُّ التّابعُ، وهو خلافُ العدوِّ، والوَلايةُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَخَذ).

النُّصرةُ، والولايةُ: الإمارةُ أيضًا[1]، ومعنى ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في الآية: أربابٌ ونصراء، كالملائكة وعيسى وعُزير والأصنام، أي: اتَّخذوهم أربابًا، ولم يخلصوا العبادة لله تعالى[2].

3) ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾: (قرب) أصل يدلُّ على خلافِ البُعد، والاقترابُ: الدُّنوُّ، والتَّقَرُّبُ: التَّدنّي والتَّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ، والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى الله تبتغي به قُرْبًا ووسيلةً، والقُرْبَى: حقُّ ذوي القرابة[3]، يقال: قَرُبْتُ منه أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، ويُستعملُ ذلك في المكانِ، وفي الزَّمانِ، وفي النِّسبةِ، وفي الحَظْوةِ، والرِّعايةِ، والقُدرةِ[4]، ومعنى ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، بمعنى: يقرِّبونا، ويشفعوا لنا[5].

4) ﴿زُلْفَىٰٓ﴾: (زلف) أصل يدلُّ على اندفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيءٍ، يُقالُ مِنْ ذلكَ: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ، أي: تقدَّمَ[6]، والزَّلَفُ والزُّلْفَةُ والزُّلْفَى: القُربةُ والدَّرَجة والمَنزلةُ[7]، وزَلَفَ إليه: دَنا منه، وأزْلَفَ الشَّيْءَ: قَرَّبَهُ[8]، ومُزدَلفة: اسمٌ لمكانٍ معروفٍ سُمّي به لقربِ أهله مِن مِنى بعد الإفاضة، أو لاجتماع النّاس فيه، والازدلافُ: الجمعُ[9]، ومعنى ﴿زُلْفَىٰٓ﴾: قُرْبَى[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نادى سبحانه باستحقاقه لأنْ يُفردَ بالعبادة، ولا يُقصدَ غيره: ألا لله وحْدَه الطّاعةُ والعِبادةُ النَّقيَّةُ مِن شوائبِ الشِّركِ والرِّياءِ، لا شركَ لأحدٍ معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحدٍ؛ لأنَّ كلَّ ما دونه ملكُهُ، فهو المُستَحِقُّ وحْدَه الإفرادَ بالعبادةِ، فلا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلّا ما كان خالِصًا له وحْدَه دونَ ما سِواه[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 479، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 534.
(3) الخليل، العَيْن: (قرب).
(4) الراغب، المُفردَات: (قرب).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 79.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).
(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (زلف).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (زلف).
(10) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 79.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 250.

ثمَّ ذكر سُبحانَه ما عليه المُشركونَ الَّذين اتَّخَذوا مَعبوداتٍ باطِلةً يَعبُدونها مِن دونِ اللّهِ مِن ضَلالٍ، وأنَّهم يَقولونَ: ما نَعبُدُ هذه المعبوداتِ إلّا لِتُقَرِّبَنا إلى اللّهِ قُربةً منه ومَنزِلَةً في الدُّنيا، ويشفعوا لنا عنده في حاجاتنا، وأنَّ اللّهَ يَفصِلُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما هم فيه مُختَلِفونَ في الدُّنيا، وأنَّ اللّهَ لا يُرشد إلى الحقِّ ودينه الإسلام والإقرار بوحدانيَّته، مَن هو مفترٍ على اللّه، وقصده الكذب يتقوَّلُ عليه الباطل، ويضيفُ إليه ما ليس من صفتِهِ، ويزعمُ أنَّ له ولدًا افتراءً عليه، ويجحد بآياتِهِ وحُجَجِهِ وبراهينه[1].

إثباتُ العبادةِ الخالصةِ لله وحده، وبيانُ بطلانِ الشِّرك

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ عن الجملة الَّتي قبلها: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بين الجملتَين مِن كمالِ انقطاعٍ، لاختلافِ الجملتين خبرًا وإنشاءً.

استئنافٌ مبيِّنٌ أو مقرِّرٌ للأمرِ قبله بإخلاص الدّينِ لله تعالى

أو أنَّ الفصلَ لمجيء جملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ استئنافًا بيانيًّا، أي: ما يُسمّى بشبهِ كمالِ الاتِّصال؛ لكونها جوابًا عن سؤالٍ تضمَّنته الجملة الأولى، واقتضته، فإنَّه لَمّا أمرَ سبحانه بإخلاصِ العبادة له وحده دون غيره؛ فكأنَّ قائلًا قد قال: لِمَ منعهُ مِن الالتفات إلى غيره، وأكَّدَ على الإخلاصِ له؟ فنادى سبحانه باستحقاقه لذلك، وأنَّه لم يطلبْ غير حقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصوَّر أنْ يكون لغيرهِ[2]، وأنَّه لا يقبلُ إلّا العملَ الخالص له.

أو أنَّه فصلَ لكمالِ الاتِّصال عند من يُجيز العطفَ بين الخبريَّة والإنشائيَّة؛ لكون قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ جاء تقريرًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 251، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 85.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.

للأمرِ بالإخلاص[1]، وبيانًا أنَّه تعالى كما له الكمالُ كلُّه، وله التَّفضُّل على عباده من جميعِ الوجوه، فكذلك له الدّينُ الخالصُ الصّافي من جميعِ الشّوائب[2]، أو جاءَتْ تعليلًا لِلأمْرِ بالعِبادةِ الخالصةِ للّه؛ لأنَّه إذا كان الدّينُ الخالِصُ مُستَحَقًّا للّهِ وخاصًّا به؛ كان الأمْرُ بالإخلاصِ له مُصيبًا مَحَزَّهُ، فصارَ أمْرُ النَّبيِّ ﷺ بإخلاصِ العِبادةِ له مُسَبَّبًا عن نِعمةِ إنزالِ الكِتابِ إليه، ومُقتَضًى لِكَونِه مُستَحِقَّ الإخلاصِ في العِبادةِ اقتِضاءَ الكُلِّيَّةِ لِجُزئيّاتها، وجَعَل مَعنى التَّعليلِ حاصِلًا تَبَعًا مِنْ ذِكرِ إخلاصٍ عامٍّ بَعدَ إخلاصٍ خاصٍّ، ومَوردُهما واحِد[3].

بلاغةُ توالي المؤكِّدات في الآية:

الاعتناءُ بالدّينِ الخالص الذي هو أساسُ كلِّ خير

أكَّد البيانُ الإلهيُّ استحقاقَ اللّهِ الإفرادَ بالعبادة الَّذي يفيدهُ قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ بعدَّة مؤكِّدات، وهي: الإتيانُ بأداة التَّنبيه ﴿أَلَا﴾ والتَّوكيدُ ببناءِ الجملة على الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوتِ والدَّوام؛ لأنَّ تأسيسَ المعاني المهمَّةِ والمقاصدِ العظيمةِ يقتضي أنْ يكونَ التَّعبيرُ عنها قويًّا ثابتًا، يحقِّقُ لمعانيها الاستمرارَ والدَّوام، وكذلك التَّوكيدُ بتقديم الخبرِ في الجملة المفيدِ للاختصاص، ومجيئه جارًّا ومجرورًا، والتَّوكيدُ باصطفاءِ لام الجرِّ الدّالَّة على الاستحقاق، واصطفاءِ لفظ الجلالة الجامع لصفاتِ الكمال، والتَّوكيدُ بالاستئنافِ البيانيِّ الَّذي يقتضي تأكيدَ الحُكم، وهو الجوابُ، والذي هو "تعليلٌ للأمرِ بالعبادةِ الخالصة للّه وحدَهُ؛ لأنَّه إذا كان الدّين الخالص مستحقًّا للّه وخاصًّا به؛ كان الأمرُ بالإخلاصِ له مصيبًا محزَّهُ"[4]، فكانت كلُّ هذه المؤكِّدات للاعتناءِ بالدّين الخالص الذي هو أساسُ كلِّ خير؛ لأنَّ غيرَ الخالص كالعدم.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 335، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 388.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 717.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 317.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 317.

نكتةُ افتتاحِ الجملة بأداة التَّنبيه ﴿أَلَا﴾:

تنبيهُ الأذهانِ إلى أهمّيَّة الإخلاص لله تعالى واستحقاقه لذلك

افتُتِحَتْ جملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾ بأداةِ التَّنبيه ﴿أَلَا﴾، وهي مُرَكَّبةٌ "من همزةِ الاستفهام وحرفِ النَّفي، لإعطاءِ معنى التَّنبيه على تحقُّق ما بعدها، والاستفهامُ إذا دخلَ على النَّفي؛ أفادَ تحقيقًا"[1]، وفي هذا التَّنبيه والتَّحقيق إشعارٌ بأهمّيَّة ما بعدها، وطلبٌ للإصغاء إليه بتنبيهِ الأذهان إلى أهمّيَّة الإخلاص لله، الَّذي هو غرضُ السّورة، وزيادة تأكيدٍ وتقريرٍ لِما قبلها[2]؛ لتتلقّاه النَّفسُ بشَراشِرِها، وذلك هو ما رجَّحَ اعتبارَ الاستئنافِ فيها، وجعلَ معنى التَّعليل حاصلًا تبعًا، من ذكرِ إخلاصٍ عامٍّ بعد إخلاصٍ خاصٍّ، وموردهما واحدٌ[3].

معنى (اللام) في القيد ﴿لِلَّهِ﴾:

لا يَحِقُّ الدّينُ الخالِصُ إلّا للهِ وحده

لام ﴿لِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾ لامُ الاستحقاقِ، أيْ: لا يَحِقُّ الدّينُ الخالِصُ - أي: الطّاعةُ غيرُ المَشوبةِ - إلّا له على نحو: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 2][4]، وإنَّما استحقَّه سبحانه دون غيره؛ لأنَّه هو الذي شرعَهُ، فكيف يشركهُ مَن لا أمرَ له بوجهٍ من الوجوه، وأمّا ما كان فيه أدنى شركٍ؛ فهو ردٌّ على عامله، واللّهُ غنيٌّ حميدٌ[5].

نكتةُ إظهارِ الاسم الجليل في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾:

اختصاصُ اللهِ بالدين الخالص لما له من صفات الجمال والجلال

في إبرازِ اسم (اللّه) في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾ شأنٌ عَظيمٌ، وخَطبٌ جَليلٌ؛ لإفادةِ ذلك الدَّلالةَ على وجهِ اختصاصِ اللّهِ الملكِ الأعلى وحده بالدّينِ الخالصِ، وأنَّه تعالى هو المستحقُّ للعبادةِ الخالصةِ من كلِّ شائبةٍ، لكونهِ المتفرِّدَ بصفاتِ الإلهيَّة،

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 335.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 518.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 317.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 318.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 442.

والاطِّلاع على الأسرارِ والضَّمائر[1]، وله الأمرُ والخلقُ لا يشركهُ فيه أحدٌ، فكما تفرَّد سبحانه بأنْ خلقَكَ، وخلقَ كلَّ ما لك من شيءٍ، فكذلك ينبغي أنْ تُفردَهُ بالطّاعة، ولأنَّه إذا عبده أحدٌ مخلصًا؛ كفاهُ كلُّ شيءٍ، وأمّا غيره؛ فلو أخلصَ له أحدٌ؛ لا يمكن أنْ يكفيه شيئًا مِنَ الأشياءِ فضلًا عن كلِّ شيء[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلدِّينُ﴾:

الدّينُ الخالصُ هو الدّينُ الكامل وهو الإسلامُ

لامُ ﴿ٱلدِّينُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ عهديَّةٌ، والمقصودُ بالدّين هو الدّين الكاملُ، فكمالُ الدّين بكونه خالصًا، وهو دينُ الإسلامِ الذي كان في كلِّ ملَّةٍ، المنبني على توحيدِ اللّه في عبادتِهِ، وعلى إقامة شعائرِ دينِهِ بالإخلاص المحضِ النّاشئ مِنَ المراقبة والمحاسبة، فيجعلُ جميعَ ما يرضي اللّهَ ﷻ مِنَ الأعمال الظّاهرة والباطنة له وحده خالصًا صافيًا؛ ابتغاءَ مرضاته وأجره، من غيرِ شهوةٍ ظاهرةٍ أو باطنة في شهرةٍ ولا غيرها[3].

بلاغةُ تقديمِ المسندِ في ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾:

اللـهُ مُستحِقٌّ للدّين الخالصِ مُختَصٌّ به

قُدِّم المسنَدُ - وهو الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ - على المسنَدِ إليه - وهو المبتدأ ﴿ٱلدِّينُ﴾ - في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾، فلم يقل: (الدين الخالص للّه)؛ لإفادة الاختصاص والقصر، وأنَّه مُستحِقُّه، ومُختَصٌّ به[4]، والمعنى: (ألا إنَّ للّهِ تعالى وحدهُ، وليس لأحدٍ سواه الدّينُ الخالِصُ مِن شوائبِ الشِّرك والرّياء، والعبادةُ لوجهه وحدَهُ، والخضوعُ لقدرته الَّتي لا يعجزها شيءٌ)[5].

ويتفرَّعُ على هذا الاستحقاقِ والاختصاصِ وجوبُ إخلاصِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 336.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441 - 442.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 318.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.

المؤمن الموحِّد في عبادة ربِّه، أي: أنْ يعبدَ اللّهَ لأجله، أي: طلبًا لرضاه وامتثالًا لأمره، وهو آيلٌ إلى أحوالِ النيَّة في العبادة المشارِ إليها، بقول النَّبيِّ ﷺ[1]: «إنَّما الأعمالُ بالنيّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمنْ كانتْ هجرتُهُ إلى اللّهِ ورسوله؛ فهجرتُهُ إلى اللّه ورسوله، ومن كانَتْ هجرتُهُ إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها؛ فهجرتُهُ إلى ما هاجرَ إليه"[2].

معنى (الواو):

التَّوحيدُ الخالصُ والشِّركُ المُهلِك على طرفَي نقيضٍ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ عاطفةٌ، عطفتِ الآيةَ الكريمة على قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾؛ لظهورِ العلاقةِ بينهما، وقوَّةِ تناسبهما وترابطهما وتعانقهما؛ إذ بينهما تضادٌّ في قضيَّةٍ واحدة، فالتَّوحيدُ الخالصُ والشِّركُ على طرفَي نقيض، وهذا توسُّطٌ بين كمالِ الاتِّصال وكمالِ الانقطاع، وممّا يُحسنُ العطف بينهما تناسبُ الجملتين في الاسميَّة، وهو من محسِّنات الوصل[3]؛ إذ تتَّفقُ الجملتان في إفادةِ الثُّبوت، وتناسبهما في استخدام ما يزيد تأكيدَ المعنى في الجملتين، وهو أسلوبُ القصر، ففي الأولى استُخدِمَ القصرُ بطريق تقديم الخبر، وفي الثانية عن طريقِ النَّفي والاستثناء.

ولطيفةُ هذا العطف هو زيادةُ تَحقيقِ مَعنى الإخلاصِ للّهِ في العبادة، وأنَّه خُلوصٌ كاملٌ لا يَشوبُه شيءٌ مِنَ الإشراك، ولا إشراك الَّذين زَعموا أنَّهم اتَّخَذوا أولياءَ، وعَبَدوهم حِرصًا على القُرب مِنَ اللّهِ، يَزعُمونَه عُذرًا لهم، فقَولُهم مِن فَسادِ الوَضعِ، وقَلبِ حَقيقةِ العِبادةِ، بأنْ جَعَلوا عِبادةَ غَيرِ اللّهِ وسيلةً إلى القُربِ مِنَ اللّهِ، فنَقَضوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 318.
(2) البخاري، صحيح البخاري، باب بدء الوحي، رقم: (1).
(3) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 2/ 307.

بهذه الوَسيلةِ مَقصدَها، وتَطَلَّبوا القُربةَ بما أبْعَدَها، والوَسيلةُ إذا أفضَتْ إلى إبطالِ المَقصدِ؛ كان التَّوسُّلُ بها ضَربًا مِنَ العَبَثِ[1].

علَّةُ التَّعبير بالموصول (الذين):

بيانُ سببِ استحقاقِ المشركين حُكمَ اللهِ فيهم مع كراهةِ التَّصريحِ بهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ عند الحديث عن المشركين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استعمالَ الاسم الموصول (الذين) دون الاسم الصَّريح، فلم يقل: (والمشركون اتَّخذوا)؛ لِما في الصِّلة من بيانِ السَّببِ الَّذي استحقّوا به الحكمَ المذكور في قوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾، ولِما في التَّعبيرِ عن المخالفين باسمِ الموصول من إيحاءٍ بكراهةِ التَّصريحِ بهم؛ استحقارًا وإهانةً لهم، استحقّوها بما افتعلوه من عندِ أنفسِهم، كما دلَّ على ذلك التَّعبيرُ بصيغة الافتعال ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، بما يدلُّ على سُخفهم وضعف عقولهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

المشركون متكلِّفون مخالفون للفطرةِ والعقلِ بما يدلُّ على ضعفِ عقولهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ بلفظ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، ولم يقلْ: (والذين عبدوا من دونه)؛ لأنَّ الاتِّخاذَ افتعالٌ من الأخذ، وهو أخذُ الشَّيء لأمرٍ يستمرُّ فيه[3]، أي: افتعلوا ذلك، واستمرّوا فيه، والافتعالُ فيه تكلُّفٌ، ويدلُّ على أنَّ الإنسانَ مفطورٌ على الخضوعِ للملكِ الدَّيّان، ولا يلتفتُ إلى غيرِهِ إلا بمعالجةِ النَّفسِ بما لها من الهوى والطُّغيان، أي: إنَّ الَّذين اتَّخذوا من دونِ اللهِ أولياء إنَّما يتكلَّفون ضدَّ فطرتهم وعقولِهم بعبادةِ أصنامٍ نحتوها بأيديهم، وهذا يدلُّ على سُخفهم وضعفِ عقولهم، وشدَّةِ ضلالِهم وسعيهم في الضَّلال، والمعنى: (عالجوا عقولهم حتى صرفوها عن اللهِ، فاتَّخذوا...)[4]، كما أنَّ في الصيغة تصويرًا لتكلُّفهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 321.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 16/ 444.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

وأمّا مجيءُ فعل الاتِّخاذ بصيغة الماضي؛ فللدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ إشراكِ المشركين.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ حرفُ جرٍّ، يفيد معنى التَّوكيد، إنْ كانت (دون) بمعنى غير، والمعنى: (والذين اتَّخذوا غير الله أولياء)، أو هي ابتدائيَّة، إنْ كانت كلمة (دون) اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، وتكون هنا مُستعارةً لمعنى المخالفة، والمعنى: (والذين اتَّخذوا أولياءَ موصوفين بأنَّهم مخالفون لصفاتِ الله).

يعبُدُ المشركون مَـن يـخـالـف الـلـهَ في جميع الصِّفات

دلالة التَّعبير بـ(دون)، وسرُّ إيثاره على (غير):

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الآلهةِ سوى الله بلفظ (دون) في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ استعارةً لمعنى الدّونيَّة لتلكَ الآلهة المتَّخذة؛ إذ إنَّ مِن معاني (دون) أنْ تكون اسمًا للمكان المُباعِدِ، أي: "نبَّههم على خطَئِهم في رضاهم بالأدنى على الأعلى بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، ومعلومٌ أنَّ كلَّ شيءٍ دونه"[1]، وهذا يدلُّ على شدَّةِ حُمقهم وسخافتهم، كما في التَّعبير بهذا اللَّفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ في هذه الجملة المعطوفةِ بالواوِ على الجملة السّابقة - الَّتي صُرِّح فيها بالاسم الجليل - مقارنةٌ توضِّحُ المغايرةَ بين الإلهِ الحقِّ والأصنامِ المزعومة، وإشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ وحده هو المستحقُّ للعبادة.

اتِّخاذُهم الأدنى وتـركُ عـبـادةِ الأعلى دليلٌ على شـدَّةِ حُمقهم وسخافتهم

نكتةُ إضافةِ (دون) إلى ضميرِ الاسم الجليل:

جاء الاسم الجليل (اللّهُ) في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مُضمرًا لا صريحًا، فلم يقلْ سبحانه: (اتَّخذوا من دون الله) اختصارًا، للعلم به؛ إذ سَبَقَ ذكره في الجملةِ السّابقةِ المعطوف عليه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾، وتحاشيًا لإضافةِ هذا الغيرِ، وهو أصنامٌ إلى اللّهِ سبحانه تنزيهًا له سبحانه.

تـنـزيـهُ الاسـم الـجـلـيـل مـن إضافته إلى دونه من الشُّركاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

دلالةُ التَّعبيرِ بالولاية في قوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الولاية في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ تماشيًا مع اعتقادهم بأنَّهم أولياء لهم، وأنَّهم ينفعونهم، ويقرِّبونهم من اللّه، فالوليُّ هو المحبُّ والنّاصرُ والحليفُ والملازمُ الَّذي لا ينفكُّ عَن مَولاه[1]، فأصلُهُ يدلُّ على القُرْبِ والدُّنوِّ[2]، وفي هذا التَّعبير مزيدُ توبيخٍ لهم على اعتقادِهم وفساد عقولهم حين اتَّخذوا من دونهِ سبحانه أولياءَ، واللّهُ أقربُ إلى عبادهِ من حبل الوريدِ.

اتِّخاذُهم الأولياءَ واعتقادهم بقربهم ونفعهم دليلٌ على فسادِ عقولهم

دلالةُ جمع ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، ولطيفة تنكيره:

في الآية المعطوفِ عليها، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ اصطفى البيانُ الحكيم لفظَ الجلالةِ؛ للدَّلالةِ على الوحدانيَّة، فهو اللّهُ الفردُ الصَّمد، بينما اصطفى للتَّعبيرِ عن الآلهةِ في الآية المعطوفة - وهي ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ - لفظَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بصيغةِ الجمع؛ تناسبًا مع الجمع في (الذين)، ومراعاةً لِما يقتضيه حالُ المخاطَبين، فقد كانَتْ آلهتُهم متعدِّدَةً، وهذا يدلُّ على بطلانِها، واستحقاقِ اللّه وحده للعبادةِ الخالصة، فلو كان لهذه الآلهةِ المتعدِّدة شيءٌ من أمورِ العباد؛ لَما استقرَّ للكونِ بما فيه قرارٌ، ولفسدتِ الحياةُ كلُّها؛ إذ لا يعقلُ أنْ تصلُحَ أمورُ العبادِ والحياةِ عامَّة مع هذا التَّعدُّد، ولكلِّ وليٍّ منها مِن أهواء ورغبات: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: 21 - 22].

في إفرادِ المعبودِ تعالى قرارُ الكون وما فيه

وقد نكَّر ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ لإفادةِ العموم، أي: الَّذين اتَّخذوا مِن دونِهِ أيَّ وليٍّ، كما في التَّنكيرِ تحقيرٌ لهؤلاء الأولياء الذين اتَّخذوهم.

(1) الجوهري، الصحاح، وابن دريد، جمهرة اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

موقع جملة: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾:

بـيـانُ حـالِـهـم وسببِ اتِّخاذهم الأولياء ينبئُ عن حُمقهم وفسادِ اعتقادهم

جملة: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ؛ لأنَّ نظمَها يقتضي ذلك؛ إذ ليس في الكلام ما يصلُحُ لأنْ يعودَ عليه نونُ المتكلِّم ومعه غيره، فتعيَّن أنَّه ضميرٌ عائدٌ إلى المبتدأ، أي: هم المتكلِّمون به وبما يليه، وفعلُ القولِ محذوفٌ، وهذا القولُ المحذوفُ يجوزُ أنْ يُقدَّر بصيغة اسم الفاعل، فيكون حالًا مِن (الذين اتَّخذوا)[1]، مبيِّنةً لكيفيَّةِ إشراكِهم وعدمِ خُلوصِ دينهم، والتَّقدير: (قائلين ما نعبدهم لشيءٍ مِنَ الأشياءِ إلّا لِيُقَرِّبونا إلَى اللّه تعالى تقريبًا)[2]، ويجوزُ أنْ يُقَدَّرَ بصيغة الفعل، والتَّقدير: (يقولون: ما نعبدهم إلّا للقربةِ)[3]، وتكون الجملةُ حينئذٍ بدلَ اشتمالٍ من جملةِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، فإنَّ اتِّخاذهم الأولياء اشتملَ على هذه المقالة[4].

وممّا لا بُدَّ مِن لفتِ الانتباه إليه أنَّ في الآيةِ إيجازَ حذْفٍ بحذفِ جملةِ القول، فحذْفُهُ أحسنُ وأوجز وأبلغ، وبلاغتُهُ بالإضافة إلى الإيجازِ والاختصار إفادةُ احتقارِ قولِهم وما نطقوا به، وأنَّه قولٌ ضعيفٌ مَهينٌ لا يستحقُّ ذِكره، ولا التَّصريح به وبقائله، مع توجيهِ العناية إلى المقولِ الفاسدِ، فهو الغرضُ المقصود الَّذي يبيِّن حمقَهم وفساد عقولهم واعتقادهم، ويبطلُه البيانُ القرآنيُّ.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها[5]، نفتْ عن المشركين عبادَتهم للشُّركاء إلّا مِن أجلِ أنْ يقرِّبوهم إلى اللّه زلفى.

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.
(3) الزركشي، البرهان: 3/ 196.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 321.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 505.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعبادة في: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا﴾:

العبادةُ نهايةُ التَّعظيم ولا تليقُ إلّا بِمن يصدرُ عنه غايةُ الإنعام

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بالعبادة في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ دون لفظِ الطّاعة مثلًا، فلم يقلْ: (ما نطيعهم إلّا ليقرِّبونا)، لكونِ العبادة أبلغَ وأنسبَ للسّياق مِن لفظ الطّاعة، فالعبادةُ هي الطّاعةُ مع الخُضوعِ والتَّذلُّل والانقياد[1]، بل هي غايةُ التَّذلُّل، فلا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضال، وهو اللهُ ﷻ[2]، والعبادةُ نهايةُ التَّعظيم، ونهايةُ التَّعظيم لا تليقُ إلّا بمن يصدرُ عنه غايةُ الإنعام، وهو المنعمُ ﷻ، وهذه الأوثانُ لا مدخلَ لها في ذلك الإنعام، فالاشتغالُ بعبادةِ هذه الأوثانِ يوجبُ كفران نعمةِ المنعم الحقِّ[3]، فكان التَّعبيرُ بلفظِ العبادة متناسبًا مع السّياق الَّذي وردَ فيه الأمرُ بالإخلاصِ للّه، ولينعي على المشركين عبادتهم الأولياءَ والشُّركاء مع اللّه، وتركهم إخلاصَ العبادة للّه، الَّذي لا يستحقُّ أحدٌ غيره العبادة، وكذلك أتى التَّعبيرُ بلفظ العبادةِ مناسبًا لوروده في الآية السابقة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ووروده في السّورة في عدَّة مواضعَ متناسبٌ مع أحدِ أهمِّ مقاصدِ السّورة والمضمون العامِّ لها، وهو إخلاصُ العبادةِ للّه وحده، كما ذكرنا.

دلالةُ المضارعةِ في الفعلِ ﴿نَعۡبُدُهُمۡ﴾:

في تجدُّدِ المشركين واستمرارِهم على عبادةِ الشركاء تصويرٌ لإصرارهم على الشِّرك

أتى الفعل (نعبد) في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ بصيغة المضارع الَّتي تدلُّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ والاستمرار؛ للدَّلالة على تأكيدِ المشركين نفْيَ استمرارِ عبادتهم وتجدُّدِها للأولياء الَّذين اتَّخذوهم لأيِّ غرضٍ مِنَ الأغراض إلّا مِن أجلِ أنْ يقرِّبوهم إلى اللّه زلفى، وفي هذا التعبير تصويرٌ لاستمرارهم على عبادةِ الشُّركاء وتجدُّدها منهم، ممّا يدلُّ على إصرارهم على الشِّرك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(2) الراغب، المفردات: (عبد).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 422.

مرجعُ الضَّمير في ﴿نَعۡبُدُهُمۡ﴾، ونكتة إيثارِه عاقلًا:

مجاراةُ اعتقادِ المشركين بنفعِ أصنامهم وشفاعتِها تهكُّمٌ بهم

ضميرُ المفعول (هم) في قوله: ﴿نَعۡبُدُهُمۡ﴾ يرجعُ إلى الأولياء[1] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، فهو آخرُ مذكور، أي: ما نعبد تلك الأولياء إلّا ليقرِّبونا[2]، وقد استعملَ القرآنُ ضميرَ العاقلِ مع أنَّ مِن معبوداتهم ما هو غيرُ عاقل؛ اعتبارًا ومجاراةً لِما يَعتقِده المشركون فيها من أنَّها آلهةٌ تَعقِلُ، وتَشفَعُ لهم، وتقرِّبهم من الله، وهذا تهكُّمٌ بهم، أو باعتبار أنَّ مِن بين الأولياء الذين عبدوهم مِن دون الله مَنْ يعقل كعُزير وعيسى والملائكة ﷺ، فغلَّبهم.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قولهم: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

حصْرُ المشركين شركَهم بعلَّة التَّقرُّب إلى الله لا ينفي عنهم الوقوع في الشِّرك

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، مفرَّغٌ من أعمِّ العِلَلِ[3]، أي: مِن عللٍ محذوفةٍ، والمعنى: ما نعبدهم لشيءٍ مِنَ الأشياء إلّا لعلَّةِ أنْ يقرِّبونا إلى الله، فيفيدُ قصرًا على هذه العلَّة، وهو قصرُ قلبٍ إضافيٍّ، أي: دون ما شنَّعتم علينا مِن أنَّنا كفرنا نعمةَ خالقنا؛ إذ عبدنا غيره[4]، أرادوا بهِ المعذرةَ، فالقصرُ لا ينافي أنَّهم عبدوهم لأشياءَ أُخَرَ؛ إذْ عدّوهم شفعاءَ، واستنجدوهم في النّوائبِ، واستقسموا بأزلامِهم للنَّجاح، كما هو ثابتٌ في الواقع.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾:

تعليلُ المشركين لا ينفي عنهم الوقوعُ في عين الشِّرك

اللامُ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ هي لامُ (كي)[5]، وتُسمّى لامُ التَّعليل[6]، والمعنى: (ما نعبدهم إلّا كي يقرِّبونا)، فهُم يعلِّلون عبادتَهم للأولياء، بأنَّها لأجلِ أنْ يقرِّبوهم إلى الله، وهذا لا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 479.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 182.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 505.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 388.

ينفي عنهم الشِّرك، بل هو عينُ الشِّرك، فإنَّ اللَّهَ تعالى لا يقبلُ إلّا العبادةَ الخالصةَ دون شريكٍ أو وسيطٍ.

دلالةُ التَّعبير بالتَّقريب في قوله: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ التَّقريبِ على لسانِ المشركين في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لاتِّساع دلالةِ التَّقريب، ومناسبةِ معناه للسياق، فالقربُ يدلُّ في أصلِه على خلافِ البُعد[1]، ويُستعملُ في المكانِ والزَّمانِ والنِّسبة، وفي الدُّنوِّ والحظوةِ والمنزلةِ والرِّعاية[2]، فتقرُّبُ العبدِ مِنَ اللّه، يعني: التَّوسُّلَ والتَّقرُّبَ إليه بالذِّكرِ والعمل الصّالح، وقربُ اللّهِ مِنَ العبدِ معناه قربُ نعمهِ وألطافهِ منه، وبرِّه وإحسانه إليه، وترادفُ مِنَنِه عنده، وفيضُ مواهبهِ عليه[3]، فتعلُّلُ المشركين بأنَّ عبادتَهم للشُّركاء هي مِن أجلِ تقريبهم إلى اللّهِ على أنَّها وسيلةٌ إليه وشفيعٌ عنده، يثبتُ شركهم مع اللّهِ غيره، فالعبدُ يتقرَّب إلى اللّهِ بالذِّكر والعمل الصّالح؛ لتكونَ له الحظوةُ والمنزلة، ويتحصَّلُ له برُّ اللّهِ وإحسانه إليه وفيض مواهبه عليه، وليس كما اعتقدَ المشركون بعقولِهم الفاسدةِ أنَّ عبادتهم غيره معه تقرِّبهم إليه.

تعلُّلُهم بأنَّ عبادتَهم للشُّركاء تقرِّبهم إلى الله يثبتُ شركهم، وينبِئُ عن فسادِ اعتقادهم

معنى ﴿إِلَى﴾ في القيد ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ حرفُ جرٍّ، يفيدُ انتهاءَ الغاية، والتَّعبيرُ به مع الاسمِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيهِ منه سبحانه على بُعدِ هؤلاء المشركين بقولهم هذا عن الصَّواب[4]، أي: اعتقادهم الوصول إلى غايةِ القربِ مِن اللّه بعبادتهم للأصنام اعتقادٌ فاسِدٌ.

اعتقادُ المشركين الوصول إلى غايةِ القربِ من الله بعبادتهم للأصنام اعتقادٌ فاسد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(2) الراغب، المفردات: (قرب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل في ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

التَّعبيرُ باسم اللهِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وهو الذي له معاقدُ العزِّ ومجامعُ العظمة؛ قصدًا من المشركين امتداحَ هذه الطريقة من التَّقرُّبِ إلى الله باتِّخاذ الشُّركاء، أي: نعبدهم ليقرِّبونا إلى الله تقريبًا عظيمًا على وجه التَّدريج، ويزلفونا إليه[1].

التقرُّبُ إلى الله الذي له معاقدُ العزِّ ومجامعُ العظمةِ لا يكونُ باتِّخاذ الأولياء

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ دون (واسطة):

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بـ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لإفادةِ التَّوكيد بالمصدر الملاقي لعاملهِ في المعنى[2]؛ إذ لو قال: (واسطة)؛ لَما أفادَ ذلك؛ لأنَّ زلفى اسم مصدر، فيكون مفعولًا مطلقًا، والمعنى: ليقرِّبونا قربًا شديدًا[3]؛ إذ أصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّم في قُربٍ إلى شَيءٍ[4]، والزُّلْفَى هي القُربةُ والدَّرَجةُ والمَنزلةُ[5]، والمعنى: ليقرِّبونا تقريبًا حسنًا سهلًا بهجًا زائدًا ناميًا متعاليًا[6]، والمقصودُ منزلةُ القربِ، وهي منزلةُ الكرامة والعناية في الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يؤمنون بمنازلِ الآخرة[7]، فلفظ ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ أوسعُ دلالةً؛ إذ دلَّ هنا على معنى الشَّفاعة والمنزلة والقرب[8]، فيكون المعنى: (ليَشْفَعوا لَنا، ويُقَرِّبونا عِنْدَهُ مَنْزِلَةً)[9]، بينما الواسطةُ لا تدلُّ على كلِّ هذه المعاني، فهي الشَّفاعةُ والوسيلة[10].

غايةُ المشركين من عبادتِهم الشُّركاء تأكيدُ تحصيلهم منزلةَ القربِ من الله

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 518.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322، ويجوز أنْ يكون ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ منصوبًا بدلًا من ضمير ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾ بدل اشتمال، أي: ليقربوا منزلتنا إلى الله.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.
(8) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 114.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 85.
(10) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وسط).

عِلَّةُ فصلِ الآية عمّا قبلها:

وعيدٌ وتهديدٌ للمشركين يُعْلَمُ منه إبطالُ تَعَلُّلِهم لشركهم

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ بين الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾، والَّتي قبلها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، ولم يأتِ بالعاطفِ؛ لِما بينَهما من كمالِ اتِّصال، أي: اتِّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ بسبب كون قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ خبرًا للمبتدأ الَّذي هو الاسم الموصول (الذين)، والخبرُ وعيدٌ وتَهديدٌ لهم على قَولِهم ذلك، فعُلِمَ منه إبطالُ تَعَلُّلِهم في قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لأنّ الواقعَ أنَّهم عَبَدوا الأصنامَ أكثَرَ مِن عِبادَتِهم للّهِ[1].

أو أنَّه فصلَ لِما بينهما من شبهِ كمال اتِّصال، لكونه استئنافًا بيانيًّا واقعًا في جوابِ سؤالٍ مُقَدَّرٍ، تقديره: ماذا يحصل لهم؟[2] فقيل: إنَّ اللّه يحكم بينهم.

غرضُ توكيدِ الخبرِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾:

تهديدٌ للمشركين ووعيدٌ لهم على قولِهم الباطلِ

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ، وهو حُكمُ اللّهِ بإبطالِ دعوى جميع المشركين، أو الحكمُ بينهم وبين المخلِصين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، وغرضُه التَّهديدُ للمشركين والوعيدُ لهم على قولهم ذلك[3]، أي: نبَّهَ سبحانه على أنَّ محطَّ دينِ المشركين هو الهوى الَّذي يؤدّي إلى الاختلافِ، مهدِّدًا لهم بقولِه، مخبرًا خبرًا مُؤكَّدًا لأجلِ إنكارهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾[4].

نكتةُ إظهارِ الاسم الجليل في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ﴾:

أظهرَ البيانُ الحكيم الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 321.
(2) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1632.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 717.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 445 - 446.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾، لتربيةِ مهابته سبحانه في النُّفوس، ولتعظيمِ حُكمه، سواءٌ في إبطالِ ما يختلفُ فيه هؤلاء المشركون، أو في الحكمِ بينهم وبين المؤمنين، ولتهويلِ الوعيدِ للمشركين على اعتذارِهم الدالِّ على قبيحِ صنعهم، والمعنى: (إنَّ اللَّهَ الذي له جميعُ صفاتِ الكمالِ يحكمُ بين جميعِ المخالفين في الأديان وغيرها، من المتَّخذين للأولياء من دونه ومن المخلصين وغيرهم)[1]، وفي إظهارِ الاسم الجليل كذلك إشارةٌ إلى خطَئِهم في اعتقادهم الفاسد بأنَّ الأولياءَ ينفعونهم، فيكون المعنى بأنَّ اللَّهَ وحده لا أحدَ غيره هو الَّذي يحكمُ بينهم.

تربيةٌ للمهابةِ منه سبحانه وتعظيمٌ لحكمهِ وتهويلٌ للوعيدِ على اعتذارِهم القبيح

دلالةُ التَّعبيرِ بالحُكم دون القضاء في ﴿يَحۡكُمُ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الحكم دون القضاءِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ رغمَ أنَّ من معاني الحكم القضاء[2]؛ لاتِّساعِ دلالة لفظ الحُكم، ولمناسبته للسياق؛ إذ مادَّةُ (حكم) تدلُّ في أصلها على المنع، وأوَّلُ ذلك الحُكم هو المنعُ مِنَ الظُّلم ومن الفسادِ[3]، ومن معاني الحُكم: العِلْمُ والفِقْهُ والقَضاءُ بالعَدْلِ والقوَّة[4]، وهذه المعاني كُلُّها تتناسبُ مع سياقِ التَّفرُّدِ بالإلهيَّة والملكيَّة والقوَّة والقاهريَّة، فمَن مَلَك؛ فله الحكمُ والأمر.

مـن مَـلَـكَ، وتفرَّدَ بالإلهيَّة والقاهريَّةِ فلهُ الحكمُ والأمر

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿يَحۡكُمُ﴾:

جاءَ الفعلُ ﴿يَحۡكُمُ﴾ بصيغةِ المضارعِ الَّذي يدلُّ على الاستمرار والتَّجدُّد، ويفيدُ التَّصويرَ؛ لإفادةِ تفخيم هذا الحكمِ وتعظيمه؛ وللدَّلالة على استمرارِ حكمِ اللَّهِ تعالى في عبادِهِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).

عودُ الضَّميرِ في قوله: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾:

اللهُ يحكمُ يومَ القيامةِ بين المشركين وأوليائِهم وبين المشركين والمسلمين

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ إمّا أنْ يكونَ عائدًا إلى الَّذين اتَّخذوا أولياء، والمرادُ بـ﴿مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ اختلافُ طرائقهم في عبادةِ الأصنام وفي أنواعِها مِنَ الأنصاب والملائكة والجنِّ، على اختلافِ المشركين في بلادِ العرب، ومعنى الحكم بينهم: أنَّه يبيِّن لهم ضلالَهم جميعًا يومَ القيامة؛ إذ ليس معنى الحكم بينهم مقتضيًا الحكمَ لفريقٍ منهم على فريقٍ آخر، بل قد يكونُ الحكمُ بين المتخاصمين بإبطالِ دعوى جميعهم[1]، وإمّا أنْ يعودَ على المشركين وعلى أوليائِهم، أي: عائدٌ على المُتَّخِذينَ، والمُتَّخَذينَ؛ إذ يرجو العابدون شفاعتَهُم، وهم يتبرَّؤونَ منهم، ويلعنونهم، والمعنى: (إنَّ اللهَ يحكمُ بينهم بأنَّه يُدخلُ الملائكةَ وعيسى الجنَّةَ، ويُدخلهم النّارَ مع الحجارة الَّتي نحتوها، وعبدوها مِن دون الله، يعذِّبُهم بها؛ إذ يجعلهم وإيّاها حصبَ جهنَّم)، أو أنْ يعودَ الضَّميرُ إلى المشركين وإلى المسلمين أو المخلصين فيما اختلفو فيه من التَّوحيد والإشراك، والمعنى: (إنَّ الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين مِن الفريقَين)[2]، أو (يحكم بين أهلِ الأديان يوم القيامة، فيجازي كُلًّا بما يستحقُّ)[3].

نكتةُ تقييد الحُكم بـ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ولطيفة إضافته:

حُكمُهُ سبحانه بينهم فيه تخويفٌ وتهديدٌ للمشركين

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ قيَّد البيانُ القرآنيُّ الحكمَ بالظَّرف ﴿بَيْنَهُمْ﴾ مضافًا إلى ضميرهم فقط، أي: ضميرِ الذين اتَّخذوا من دونه أولياء؛ وذلك للتَّخويف والتَّهديدِ، ولتهويلِ الوعيدِ للمشركين على اعتذارِهم الدّالِّ على قبيحِ صنعهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 113، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 234.

ففي الجملة إيجازٌ بالحذف؛ لأنَّ الأصل: (يحكم بينهم وبين غيرهم ممَّن ذكرنا)، فحذفَ المقابل إيجازًا للكلام، أو اكتفاء بالمذكور[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي مَا هُمْ﴾:

إحاطةُ علمِهِ سبحانه بالظّالمين إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ

معنى حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ﴾ الظرفيَّة المجازيَّة، والتَّعبيرُ فيه إيذانٌ بإحاطةِ علْمِهِ سبحانه لكلِّ اختلافاتِهم، وقدرته على الحكمِ بينهم جميعًا، إحاطةَ الظَّرف بالمظروف.

نكتةُ تقديم ﴿هُمْ﴾ في جملة: ﴿هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

اختلافُ طرائقِ المشركين في عبادةِ الأصنامِ وفي أنواعها

أفادَ تقديمُ المسندِ إليهِ، وهو الضَّمير ﴿هُمْ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، إبرازَ المسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ باعتبارهم محورَ الإخبار عنهم، وفيه دلالةٌ على تخصيصِ الخبر، وهو ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمشركين دون غيرهم، وعلى تحقُّقِ الخبرِ، وأنَّه حاصلٌ - لا محالة - فاختلافُ طرائقِهم في عبادةِ الأصنامِ وفي أنواعِه أمرٌ ثابتٌ لهم[2]، ودلَّ أيضًا على تقويةِ الحُكم، وهو اختلافهم، وذلك لتكرارِ الإسناد، فكأنَّ الحكمَ هنا ذُكِرَ مرَّتين: مرَّةً حين أُسنِدَ الفعلُ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ إلى المبتدأ، ومرَّةً حين أُسنِدَ إلى ضميره العائدِ إلى المبتدأ ﴿هُمْ﴾، ولو تأخَّر المسندُ إليه، فقال: (يختلفون هم)؛ لَما تحقَّق هذا التَّكرار، وكذلك في التَّقديم تحوَّلت الجملةُ إلى اسميَّة، فأفادتِ الثَّباتَ والدَّوامَ والتَّأكيد.

هذا إن كان الضَّمير ﴿هُمْ﴾ يعود إلى الَّذينَ اتَّخذوا مِن دونِ اللّه أولياءَ، وأمّا إنْ كان عائدًا إلى المشركين وخصمائِهم مِنَ المؤمنين الذين هم المُخلِصون للدّين[3]، فالفائدةُ ذاتها - من

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 518.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.

الدَّلالة على تحقُّقِ الخبر وثباته وغير ذلك - متعلِّقةٌ بالاختلافِ بين المشركين والمؤمنين.

معنى (في) في القيد ﴿فِيهِ﴾:

الاختلافُ بين المشركين في طرائقِ عبادتهم للأصنام وفي أنواعها اختلافٌ مستقِرٌّ فيهم ومتمكِّنٌ منهم؛ لأنَّ محطَّ دينهم الهوى، وكان كلُّ من تبعَ الهوى لا ينفكُّ عن الاضطرابِ في نفسه، فكيف إذا كان معه غيره، فكيف إذا كانوا كثيرًا، فيكثرُ الخلافُ والنِّزاع، ولذلك كان لكلِّ قبيلةٍ ممَّن يعبدُ الأصنام صنمٌ غيرُ صنمِ الأخرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: 159]، وقال سبحانه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 53][1]، بل إنَّهم مظروفون لذلك العملِ الَّذي مبناهُ الهوى، وهو منشأُ الاختلاف، فليس لهم أصلٌ يضبطهم، فهُم لا يرجعون إلّا إلى الخلفِ كيف ما تقلَّبوا، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك خلافُ المخلصين وإنكارهم عليهم الَّذي أرشدَ إليه اعتذارهم[2].

الاختلافُ بين المشركين في عبادتِهم الأصنامَ اختلافٌ مستقِرٌّ فيهم ومتمكِّنٌ منهم

نكتةُ تقديمِ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَخۡتَلِفُونَۚ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ على الفعل ﴿يَخۡتَلِفُونَۚ﴾؛ للاهتمامِ بمحلِّ الاختلاف، فهو العنصرُ الأبرزُ في السّياق، سواءٌ كان الاختلافُ بين المشركين في طرائقِ عبادتهم للأصنام؛ إذ أظهرَ به بطلانَ عبادتِهم، وأنَّها محضُ هوًى، أو كان الاختلافُ بين المشركين والموحِّدين؛ إذ محلُّ الاختلافِ هو توحيدُ الله بالعبادة، وهو أمرٌ لا يُقدِّمُ عليه غيره؛ إذ لا يوجدُ ما هو أهمُّ منه.

اهتمامٌ بمحلِّ اختلافِ المختلفين من المشركين وغيرهم

دلالةُ التَّعبيرِ في الفعل ﴿يَخۡتَلِفُونَۚ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿يَخۡتَلِفُونَۚ﴾ دون غيره؛ لاتِّساع دلالةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.

مادَّةِ الاختلافِ الَّتي تدلُّ في أصلها على عدمِ الاتِّفاق وعدمِ التَّساوي، وعدمِ الاجتماع على رأي، كأنَّ كُلًّا يذهبُ إلى ما جعلَهُ الآخر خَلْفَهُ[1]، كما أنَّ الخِلافَ أعمُّ مِنَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كُلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين[2]، وبهذا يكونُ استعمالُ لفظِ الاختلاف يناسبُ المعنيَين لكلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين المشركين أنفسِهم، أو بين المؤمنين والمشركين، كما أنَّ لفظَ الاختلاف أنسبُ للمقام؛ إذ الاختلافُ يُستعار للمنازعةِ والمجادلة[3]، والحالُ بين المشركين أنفسهم هو حالُ منازعةٍ ومجادلة، فقد "كانوا أوزاعًا، أكثرُ قبائلهم على خلافِ ما يعتقدُهُ غيرها"[4]، قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 53]، وكذلك الحالُ بين المختلفين مِن المؤمنين والمشركين هو حالُ منازعةٍ ومجادلةٍ.

الاختلافُ أوسعُ دلالةً، فهو يشملُ المتضادّين فيما بينهم وغير المتضادّين

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿يَخۡتَلِفُونَۗ﴾:

التَّعبيرُ بصيغة المضارعة في المسندِ الفعليِّ ﴿يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ يفيدُ أنَّ الاختلافَ بين المشركين في طرائقِ عبادتهم للأصنام وأنواعها اختلافٌ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ، وهذا يدلُّ على تحكُّمِ الهوى فيهم، والاختلافُ كذلك بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الشِّركِ، فهو متجدِّدٌ مستمرٌّ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: 118]، فالاختلافُ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ سيبقى إلى قيامِ السّاعة.

تحكُّمُ الهوى في المشركين وعدمُ اهتدائهم

علَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ عمّا قبلها؛ إمّا لكونِ هذه الجملة جاءتْ خبرًا ثانيًا عن قوله:

إخبارٌ عن كونِ المشركين كاذبين وكفّارين بسببِ قولهم واعتذارهم

(1) المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).
(2) الراغب، المفردات: (خلف).
(3) الراغب، المفردات: (خلف).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وهو كنايةٌ عن كونِهم كاذبين في قولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وعن كونِهم كفّارين بسببِ ذلك، وكنايةٌ عن كونِهم ضالّين[1]، أو جاءَتْ تعليلًا لِما ذُكِرَ من حُكمِهِ تعالى[2]، وعلى الأمرين يكونُ بين الجملةِ وما قبلَها كمالُ اتِّصالٍ، أو أنَّها جاءتِ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يثيرُ في نفوسِ السّامعين سؤالًا عن مصيرِ حالهم في الدُّنيا مِن جرّاءِ اتِّخاذهم أولياءَ من دونِهِ، فيجابُ بأنَّ اللهَ لا يهدي مَن هو كاذبٌ كفّارٌ، أي: يذرهم في ضلالهم، ويُمهِلُهم إلى يومِ الجزاء بعد أنْ بيَّن لهم الدّينَ، فخالفوه[3].

غرضُ توكيدِ الخبرِ في الآية:

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، أي: (إنَّ اللهَ ينفي عنايته بهم)، أي: العنايةَ الَّتي بها تيسيرُ الهدايةِ عليهم حتّى يهتدوا، أي: (لا يوفِّقُهم الله، بل يتركهم على رأيهم غضبًا عليهم)[4].

تأكيدُ نفي اللهِ عنايَتَهُ بالمشركين

لطيفةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾:

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾؛ لتربيةِ مهابتِهِ سبحانه في النُّفوس، والمعنى: (إنَّ الله الملك القادر القاهر الحكيم)[5]، ولتعظيم ما يتضمَّن الخبر، وهو عدمُ توفيقِ الله للَّذين اتَّخذوا من دونِهِ أولياءَ للهداية والإرشاد إلى الحقِّ.

تربيةٌ للمهابةِ منه سبحانه وتعظيمٌ لِما أخبرَ به من عدمِ توفيقهم للهداية

المرادُ بنفي الهدايةِ في قوله: ﴿لَا يَهۡدِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أخبرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.

سبحانه بأنَّه لا يهدي مَن هو كاذبٌ كفّار، وكم من كاذبٍ أو كافرٍ قد هداهُ اللّهُ، فأسلمَ، وصدَّق؟ فيكون المرادُ بنفي الهداية إمّا نفيُها عمَّن هو دائمٌ على كفرهِ وكذبه، أو لا يهديه إلى حجَّةٍ يُلزم بها المؤمنين[1]، أو لا يهديه إلى الثَّوابِ في الآخرة[2]، فهدايةُ اللّهِ المنفيَّةُ عنهم هي الهدايةُ التكوينيَّة، لا الهداية بمعنى الإرشاد والتَّبليغ، والمراد: نفيُ عنايةِ الله بهم، أي: العناية الَّتي بها تيسيرُ الهدايةِ عليهم حتى يهتدوا، أي: لا يوفِّقهم الله، بل يتركهم على رأيهم غضبًا عليهم، فلا يتداركهم اللّهُ بلطفهِ بخلقِ الهداية في نفوسهم[3]؛ "لأنَّ اللّهَ تعالى هدى الكلَّ هدايةَ الدَّلالةِ والإرشاد، فمَنْ آمنَ منهم؛ زادهُ هدايةَ المعونةِ والتَّوفيق"[4].

نفيُ هدايةِ اللهِ عن كلِّ كاذبٍ كفّار هو نفيُ عنايةِ اللهِ وتوفيقه له

عِلَّةُ التَّعبير بالموصول في ﴿لَا يَهْدِى مَنْ﴾:

المرادُ بقوله: ﴿كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ الَّذين اتَّخذوا مِن دونِهِ أولياء، أي: المشركين، فكانَ مقتضى الظّاهر الإتيانَ بضميرهِم، بأنْ يقولَ: (والَّذين اتَّخذوا مِن الله أولياء إنَّ الله لا يهديهم)، ولكنَّه عَدَلَ إلى الإضمار بقوله: ﴿كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ مستعملًا الاسمَ الموصول ﴿مَنْ﴾ لإفادةِ العموم؛ ليعمَّ أولئك المُحدَّثَ عنهم وغيرهم[5]، وكذلك لِما في الصِّلة من وصفهم بالكذبِ وقوَّة الكفر، ومِن ثَمَّ بيانُ السَّبب الذي استحقّوا به عدمَ توفيقِ اللّهِ لهم بالهدايةِ، وهو عراقتُهم في الكذبِ ورسوخهم فيه ومبالغتهم في الكفر[6]، وكذلك لتشويقِ السّامعِ إلى معرفةِ مَن لا يهديه الله، بما يتضمَّنُهُ الاسمُ الموصول من إبهام.

إيماءٌ بسببِ استحقاقِ المشركين عدمَ توفيقِ الله

(1) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 492.
(2) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 361.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13027.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 227.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكذب في الخبر ﴿كَٰذِبٌ﴾:

بطلانُ اتِّخاذ المشركين الأولياءَ من دون الله ودعواهم بأنَّها تقرِّبهم مِن الله

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الكَذِب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾؛ للإشارةِ إلى بطلانِ فعل اتِّخاذ الأولياء مِن دونِ الله، ودعواهم بأنَّها تقرِّبهم مِنَ اللهِ زلفى؛ لأنَّ الكَذِبَ باطلٌ لا قوَّةَ لَهُ، وهو خلافُ الصِّدقِ الَّذي يدلُّ في أصلهِ على قوَّةٍ في الشَّيء[1]، ولمناسبتهِ للسّياق كذلك، فعبادتُهم الأولياءَ مِن دون الله باطلةٌ، ودعواهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ كذِبٌ وافتراءٌ على الله.

لطيفةُ صوغِ الخبرِ ﴿كَٰذِبٌ﴾ اسمَ فاعل:

التَّرسوخُ في الكذبِ والدَّوامُ عليه من أقبحِ الصِّفاتِ

التَّعبيرُ باسمِ الفاعل الَّذي يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام في قوله: ﴿كَٰذِبٞ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة طغيانِهِ ومبالغتِهِ في الكذبِ، أي: (إنَّ الله لا يهدي من كان دائمَ الكذبِ على دينِ اللهِ راسخًا فيه[2])، - كما تُعربُ عنه قراءةُ (كذّاب) و(كَذوب) في الشّاذِّ - فإنَّه فاقدٌ للبصيرةِ غيرُ قابل للاهتداءِ؛ لتغييره الفطرةَ الأصليَّةَ بالتَّمرُّنِ في الضَّلالةِ والتَّمادي في الغَيِّ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكفر في قولهِ: ﴿كَفَّارٞ﴾:

الكَفّارُ يحاولُ جاهدًا سترَ الحقِّ جحودًا وتعنُّتًا

مادَّةُ لفظ ﴿كَفَّارٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾، ترجعُ إلى السَّترِ والتَّغطيةِ[4]، وتوحي بأنَّ الحقَّ واضحٌ بيِّنٌ، ولكنَّ الكَفّارَ الشَّديد الكفر يحاولُ جاهدًا سترَ هذا الحقِّ، ويبالغ متعنِّتًا في ذلك، وكلَّما كوشِف بالحقِّ؛ استظهر بسرابيلِ الكفرانِ، وضاعف التَّلفُّعَ بها حتّى لا يجدَ الحقُّ له مسلكًا، ولا هو عن الكفرِ مخلصًا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 194.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

دلالةُ صوغِ ﴿كَفَّارٌ﴾ على (فعّال):

مبالغةُ المشركين في شركهم تقطعُ عنهم هدايةَ اللهِ التَّكوينيَّة

عبَّر البيانُ الحكيمُ عن وصفِ الذين اتَّخذوا مِن دونِ اللّه أولياءَ بالكفرِ في قوله تعالى: ﴿كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ بصيغة (فعّال)؛ للدَّلالة على المبالغةِ في كفرهم، وأنَّ كفرَ هؤلاءِ قد بلغَ إلى الغاية[1]، والكَفّارُ: الشَّديد الكُفْرِ البَليغُهُ، وذلك لأنَّ مَن كفرَ في حينٍ مِن الدَّهرِ قد ضاعفَ كفرَهُ؛ لكثرةِ ما على الوحدانيَّةِ مِنَ الدَّلائلِ، وما للّه عليه من الإحسان، ولكون هؤلاءِ الَّذين تحدَّث عنهم السّياقُ قد كفروا بتأهيلِهم لشركائِهم للعبادةِ، ولعبادتهم بالفعل، ولادِّعائهم فيهم التَّقريب، أي: بـ"كفرهم باللّهِ وبالرَّسول ﷺ، وبالقرآن بإعراضهم عن تلقّيه، والتَّجرُّد عن الموانعِ للتَّدبُّر فيه"[2]، وتشيرُ المبالغةُ إلى أنَّ الذي لا يُهدى إنَّما هو مَنْ خَتَمَ عليه سبحانه الموتَ على ذلك، وفيها تهديدٌ لمن يتعرَّض لغير مقامِهِ، ويدَّعي شيئًا ليس بصادقٍ فيه، فاللّهُ لا يهديه قطُّ إلى ما فيه سدادُهُ ورشدُهُ، وتكون عقوبته أن يحرِّمَهُ ذلك الشَّيء الذي تصدّى له بدعواه قبل تحقُّقه بوجودِهِ وذوقِهِ[3].

نكتةُ اقترانِ وصفه المشركين بالكذب بالأبلَغيَّةِ في الكُفرِ:

عُلِمَ مِن مُقارَنةِ وصفِهم بالكَذِبِ بوَصفِهم بالأبلَغيَّةِ في الكُفرِ أنَّهم مُتبالِغونَ في الكَذِبِ أيضًا؛ لأنَّ كَذِبَهُمُ المَذمومَ إنَّما هو كَذِبُهم في كُفريّاتِهم، فلَزِمَ مِن مُبالَغةِ الكُفرِ مُبالَغةُ الكَذِبِ فيه[4].

نكتةُ تقديمِ ﴿كَٰذِبٌ﴾ على ﴿كَفَّارٌ﴾:

تفظيعُ كذبِهم فهو سببُ كفرِهم

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ وصفَ الَّذين اتَّخذوا من دونِ اللّه أولياءَ بالكذب على الكفر في قولِهِ: ﴿كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛ تفظيعًا لكذبِهم،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 515.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 324.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 324.

ولكونِ كذبهِم هو "ما اختلقوهُ من الكفرِ بتأليه الأصنام، وما ينشأُ عن ذلك مِن اختلاقِ صفاتٍ وهميَّة للأصنام، وشرائع يدينون بها لهم"[1]، أيَ: إنَّ كفرَهم بسببِ كذبهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 324.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»